

بهاء الدين العاملي

وفكرة المتصل والمنفصل

د. عبد الكريم اليافي

بهاء الدين العاملي عبقرية من عبقریات الحضارة العربية الاسلامية بزغت من بلاد الشام وتقلبت كالكوكب الدري في ربوع العالم العربي والاسلامي الواسعة . فقد ولد محمد بن حسين بن عبد الصمد في بعلبك سنة ٩٥٣ هـ = ١٥٤٧ م من أسرة عربية الأصل ترجع في نسبها الى الحارث الهمداني صاحب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه . وكانت قبيلته حياً من اليمن . وتوفي بهاء الدين بأصفهان سنة ١٠٣٠ هـ أو ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢/١٦٢١ م عن عمر يناهز الثامنة والسبعين قضاه في العلم والعمل والعبادة والسياحة . ونقل جثمانه الى مدينة مشهد فدفن فيها .

تاريخ وفاته مختلف فيه ويقع هذا الاختلاف في مجال سنة واحدة . وأكثر المحققين على أنه سنة ١٠٣٠ . ولكن روي أيضاً عام ١٠٣٥ . وحسبنا هنا ملاحظة واحدة عابرة على هذه الروايات وهي أنه من المعروف في علم السكان أن الأرقام التي تنتهي بالصفرة أو الخمسة ذات جاذبية خاصة بحيث تنقرب منها الأعمار فتتراكم عندها .

عاش بهاء الدين في النصف الثاني من القرن العاشر والرابع الأول من القرن الحادي عشر الهجريين أي في النصف الثاني من القرن السادس عشر والرابع الأول من القرن السابع عشر الميلاديين ، وهو عهد ذو أهمية كبيرة عند المؤرخين ، هو عهد الملوك العظام من أمثال السلطان العثماني سليمان القانوني (ملك في سنة ١٥٢٠ حتى وفاته سنة ١٥٦٦) ، وصلت جيوشه فحاصرت مدينة فينّة

عاصمة النمسة عام ١٥٢٩ ، والشاه عباس الأول الصفوي في ايران (ملك من سنة ١٥٨٧ حتى وفاته عام ١٦٢٩) ، والسلطان المغولي جلال الدين محمد شاه أكبر في الهند (ملك من سنة ١٥٥٦ حتى وفاته عام ١٦٠٥) ، والملكة اليزابت الأولى في انكلترة (ملكت من عام ١٥٥٨ حتى وفاتها عام ١٦٠٣) ولويس الرابع عشر في فرنسة انتحل زهوّاً لقب الملك الشمس (حكم بعدهم بقليل من سنة ١٦٤٣ حتى وفاته عام ١٧١٥) .

شهر هؤلاء الملوك والسلاطين بحب العلم والاهتمام بال عمران وتحسين مرافق الدولة كما شهرت اليزابت بالتشجيع على التجارة وعلى الاستعمار البغيض . في ذلك العهد نشأ بتلك الدول علماء وفنانون كبار . نشأ في انكلترة فرنسيس بيكون صاحب الطريقة التجريبية (١٥٦١ - ١٦٢٦) التي أفاد فيها من مضمون التراث العلمي العربي ، والشاعر شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) وفي فرنسة الفيلسوف روني ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) والراهب الرياضي غاسندي (١٥٩٢ - ١٦٥٥) والشاعر المسرحي كورني (١٦٠٦ - ١٦٨٤) . وقد ولد موليير في سنة ١٦٢٢ أي في عام وفاء بهاء الدين العاملي تقريباً . وفي اسبانية الكاتب المشهور سرفانتس صاحب دون كيخوت (١٥٤٧ - ١٦١٦) والمصور الكبير فيلا سكينز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) وفي ألمانية الفلكي كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) وفي ايطالية الفيزيائي والفلكي غاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) .

وفي بلاد العرب والاسلام كتّاب وفلاسفة ومؤلفون ومؤرخون وعلماء يضيق هذا الحديث عن تعدادهم منهم بل في طليعتهم بهاء الدين العاملي والفيلسوف الاسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي محمد بن ابراهيم (وفاته عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م) . ونحن هنا ذكرنا أمثلة على العبقرية الأجنبية المعاصرة دون حصر ولا استقصاء .

لقد كان عهد تلك الدول جميعاً في اقبال ابّان تلك الحقبة .

بلغ نجم الدولة العثمانية الأوج في زمن سلطانها سليمان القانوني ثم لم يُعتمَ أن مال الى الانحدار بعده ، وبدأت الصروف تتصعب وتسوء ولا سيما في البلاد العربية ومنها بلاد الشام ، فقد أهملت هذه الربوع وغدت الولاة تسمّى عليها وهي موطن العاملي دون اختيار الجديرين والمصلحين . « تعاقب على

دمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة وأربعون والياً فكان الوالي لا يتمكن من الاصلاح ان أرادته وقلبه متعلق أبداً بثبات منصبه ، والغالب أنه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المتنوعة ليوفي ماعليه من المقرر لجماعة الآستانة من الأموال . وكان الولاة يبتاعون الولاية ابتياعاً والمزايد الأكبر هو الذي توسد اليه » (خطط الشام ج ٢ ص ٢٣٤) . وروي أن السلطان مراداً في عهد العاملي أمر « أن يكتب الى أحمد باشا كوجك والي الشام بأن يدفع الى السلحدار باشا عشرين ألف ليرة ويبقى في منصبه فاضطر الوالي أن يؤدي المبلغ . ومن أهم أدوات التخريب في هذا القرن خروج جنود الانكشارية عن حد الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الرعية يستطيلون على أموالها وأعراضها ويثلمون شرفها ويذلون أعزتها وهم القوة القاهرة وأذاهم لاحق بالكبير والصغير » (المرجع نفسه) .

وقد روى المؤرخون فيما رواه أنه في سنة ألف هجرية أمر قاضي دمشق مصطفى بن سنان بقيام النواب من المحاكم واغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد كلها . وسبب ذلك أن الدفتردار محمود ارتشى من ابن الأقرع بخمسة عشر ألف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فأدى ذلك الى خراب بعلبك (مسقط رأس العاملي) ظاهرها وباطنها ورحل أهلها عنها حتى تعطلت الأحكام الشرعية وعتا بها ابن الأقرع وأتباعه وصادر الناس مصادرة ليوفي بها المال الذي التزم به للسلطة (خطط الشام ج ٢ ص ٢٣١) . ثم ان أرباب النفوذ وطائفة من العلماء في البلاد كانوا فاسدين متفرقين متملقين للولاة والحكام . ولو كانوا صالحين متعاونين لما استطاع الحكام والولاة أن يفعلوا شيئاً ، ناهيك بالشعب يعاني أصناف العسف والاضطراب والاستغلال .

كذلك بلغت الدولة الصفوية أوجها بزعامة الشاه عباس الذي كان أعظم ملوكها . على أن العداء كان مستحكماً بين الدولة الصفوية الشيعية والدولة العثمانية السنية وجرت حروب شعواء بينهما مع أن مثلهما الدينية من ينبوع واحد . وقد استعان الشاه عباس ببعض الضباط الانكليز لينظموا له جيوشه ويناشوا بها الدولة العثمانية . والغريب في هؤلاء الملوك المسلمين أنهم يستعينون بأعدائهم على أبناء ملتهم . وفي عام ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م نقل الشاه عباس

العاصمة من قزوين الى أصفهان واختصها بعناية فائقة وسرعان ما زحرت المدينة بالنشاط والفنون والصنائع . وعُني الشاه بالثقافة الأدبية والفنون والعمران وبناء القصور والمزارات وتقريب العلماء واجتذابهم وان ظلت الأحوال الداخلية يخامرها الفساد والارتشاء . ثم تردت تلك الأحوال في الداخل والخارج تردياً سريعاً بعد وفاته .

ولم تكن الدولة المغولية في الهند في عهد سلطانها شاه أكبر بأقل احتفالاً بالعلم وأهله وبالعمران وضبط أحوال الرعية بل كانت أعلى شأنًا في هذه الميادين . كان هذا السلطان الذي يكاد يعرف القراءة والكتابة مشغولاً بالعلم والفلسفة متفهماً لمسائلهما عميق الإدراك لقضاياهما . كان يجمع العلماء من مختلف المذاهب لعله يستطيع توحيدها فيجمع الشعب المتفرق على منهج واحد ويريح الناس من تشبثهم أدياناً ونحلاً وطوائف .

كان عهده عهد حرية وتسامح وتعظيم للفكر في وقت كانت أوروبا تجتاحها عواصف مدمرة من التعصب اذ كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستانت في فرنسا ، والبروتستانت يذبحون الكاثوليك في انكلترا ، ومحاكم التفتيش تنكّل ببقايا المسلمين واليهود في اسبانية ، ورجال الكنيسة يحرقون جمهرة من العلماء بتهمة الهرطقة في ايطالية .

في هذا الاطار التاريخي ظلت بلاد الشام بما تأثّل فيها من علم ومجد وأماكن مقدسة مطمح الباحثين والسائحين والعلماء . وبهذه الصورة التي عرضناها نتفهم تقلب بهاء الدين العاملي في ربوع البلاد العربية والاسلامية حتى انه قضى في سياحته كما يذكر الرواة نحو ثلاثين عاماً أضاف في هذه السياحة الى علمه خبرة واسعة بصروف الدنيا وحوادث الزمان . على أن رواية سياحته وتغرّبه هذه ان شك فيها بعض الباحثين فهي عندنا مقبولة اذا اعتبرنا محل اقامته موطنه الأول بعلبك وموطنه الأخير أصفهان لأن السياحة والهجرة لا بد فيها من النظر الى محل الاقامة الذي وطّن السائح المهاجر عزمه على اللبث فيه .

لقد نشأ بهاء الدين في بيت علم وأدب ودين وتقوى ، والده حسين بن عبد الصمد عالم فقيه رياضي شاعر ، ومن المعروف في العصر الحديث وباعتماد الاحصاء أن

النوابغ في بيوتات معروفة بالعلم أكثر احتمالاً منهم في غيرها ، اذ ينشأ الفتى فيتلقي ثمرات العلم والمعرفة دانيةً قُطوفها لديه ، فلا بد من أن يفيد من هذا الجو العلمي وأن يتذوق حلاوته ويدرك علو درجات أصحابه . لقد كان هذا الأب الفاضل حريصاً على تخريج ولده في المدرسة الأولى مدرسة البيت خير تخريج سواء في الأخلاق الحميدة والمزايا الرشيدة وفي قرض الشعر والتفتيح على عالم الرياضيات والعلوم وحب آل البيت، شأنه في ذلك شأن غالبية العلماء في ذلك الوقت اذ كانوا موسوعيين متبحرين في علوم شتى ، وكان العلم في ذلك الزمان الغاية المثلى للانسان المسلم ، وكانت قيمة المراء فيما يحسن من علوم لا فيما يملك من مال ومتاع ، هذا الى وجود رعاع من الولاة والحكام لا همّ لهم الا جمع الحطام وتكديس المال الحلال والحرام .

ولم يكد الفتى يتزعرع حتى جمع الى حب العلم والتبحر فيه حب السفر والسياحة ، شأنه في ذلك شأن أبيه ، ويظهر أنه رافق أباه الى قزوين وكانت في ذلك العهد عاصمة للصفويين وشهدت حركة علمية واسعة ، ثم سافر أبوه الى هراة وتركه . ونجد في شعر الفتى الناشء رغبة في اللحاق بأبيه . وقد أصيب في قزوين برمد تطاول أمدّه فأزعجه يذكر ذلك في أرجوزته الطويلة :

بليت في قزوين وقتاً برمد مقرح للقلب من فرط الكمد
يمنع من صرف النهار فيما يرضي اللبيب الحاذق الفهيم
من بحثٍ او تلاوةٍ أو ذكر أو درسٍ او عبادةٍ أو فكر
ولم يكن من عاداتي البطالة لأنها من شيم الجهالة . . . الخ

ولكنه لم يلبث أن لحق بهراة التي أحبها فوصف طبيعتها ومرافق الحياة فيها وصفاً بديعاً في تلك الأرجوزة نفسها .

ان بهاء الدين لم يسجل أحداث سياحاته الطويلة التي استمرت ثلاثة عقود كما سلف آنفاً ولا أزمانها ولكننا نجد لُمعاً من أخبارها منشورة في ثنايا تأليفه وفي روايات معاصريه ومؤرخيه . فلقد زار بلاد الشام كلها تقريباً والقدس وتركيا العثمانية ومصر والحجاز كما أنه لم يترك ناحية من نواحي المملكة الإيرانية

الا زارها ولا سيما بعد أن تلقاه الشاه عباس ومكّن له في دولته وقرّبه منه وغدا
رئيساً في دار السلطنة بأصفهان وشيخ الاسلام فيها . وقد رافق هذا السلطان في
سياحاته وحروبه فزار خراسان وأذربيجان وأران وديار الكرج .

ويذكر المؤرخون أن البهائي كان مطبوعاً على حب الحرية ومجافة التصنع
والتكلف ، مشغوفاً بمظاهر البساطة في الحياة ، حسن الاختلاط بالناس ، محباً
للخير ، ميالاً الى التصوف السليم الى جانب علومه الواسعة . ولا أستطيع أن
أملك نفسي دون ذكر هذه النادرة في علاقاته بأقرانه ، فقد حكى أن الشاه
عباساً ركب يوماً الى بعض متنزهاته وكان البهائي والداماد (صهر السلطان) في
موكبه اذ كان غالباً لا يفارقهما وكان الداماد عظيم الجثة والبهائي نحيفها ،
فأراد الشاه أن يختبر صفاء الخواطر بينهما فقال للداماد وهو راكب فرسه في
مؤخرة الجمع وقد ظهرت عليه آثار الاعياء والتعب والبهائي في مقدمة الركب : ألا
تنظر الى هذا الشيخ كيف تقدم بفرسه ولم يمش على وقار كما تمشي أنت ؟
فقال الداماد : أيها الملك ! ان جواد الشيخ قد استخفه الطرب عن ركبه فهو لا يستطيع
التأني . ألا تعلم من ركبه ! ثم قال للبهائي : يا شيخنا ألا تنظر الى هذا
السيد كيف أتعب مركبه بجثمانه الثقيل ؟ والعالم ينبغي أن يكون مرتاضاً مثلك
خفيف المؤونة . فقال البهائي : أيها الملك ان جواد الشيخ أعيأ بما
حمل من علمه الذي لا يستطيع حمله الجبال . فعند ذلك نزل الشاه عن جواده
وسجد لله شكراً على أن يكون علماء دولته بهذا الصفاء . وهكذا يسعد الزمان وأهله
بأمثال هؤلاء العلماء المتواضعين المتعاونين على حين نجد في العصر الحاضر من ألم
بطرف من العلم يتنطع ويطاول الذرا العالية . هذا وكان البهائي واثقاً بنفسه
عارفاً قدرها وهو القائل :

وإني امرؤ لا يدرك الدهر غايتي ولا تصل الأيدي الى سبر أغواري
أخاطب أبناء الزمان بمقتضى عقولهم كيلا يفوهوا بانكاري

ومع هذا فقد كان في قرارة نفسه يؤثر التفرغ للعلم والتغلي للعبادة
واعتزال الملوك والبعد عن المناصب لأن بلاط الحكم لا يخلو من دسائس ومن
حسد ومناوأة وأطماع ومنافسة . وقد كتب يحاسب نفسه أيّ حساب ويحنّ الى

وطنه العربي على الرغم من الصروف التي اعتورت هذا الوطن : « لو لم يأت
والذي قدّس الله روحه من بلاد العرب ولو لم يختلط بالملوك لكنت من أتقى
الناس وأعبدهم وأزهدهم . لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه
الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم ثم لم
يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا الا القيل والقال والنزاع والجدال ، وآل
الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل » .

نقول : هذا شأن كل مبرز في العلم والمعرفة سليم القلب طيّب السريرة .
أمّا ما جاء في كتاب الكشكول من احماض ومن شعر خليع لابن حجاج أحياناً فمحمل
ذلك على التفكّه وعلى الرغبة في اجسام القلب والترويح عن النفس الدؤوب في
العمل الجاد . ويبدو لنا أن البهائي كان مجاملاً في حياته للحكام وللجهال شأنه في
ذلك شأن العلماء الذين يتحامون الشرور والاضطهاد ما استطاعوا ولكنه لم يكن
راضياً عن الأحوال الداخلية التي كانت في بلاد الاسلام . ان بيت الشعر السالف :

أخالط أبناء الزمان بمقتضى عقولهم كيلا يفوهوا بانكاري

دليل على ما نذهب اليه من وصفه بالمجاملة . ولذلك يحسن بمطالع كتبه
وأشعاره في جانب ما زخرت به من فوائد جمعها أن ينتبه الى ما أدمجه فيها من
فقرات وحكم ومواعظ . ففي الجزء الثاني من الكشكول (ص ٢٦٧ تحقيق
طاهر أحمد الزاوي) وردت رواية عن علي بن أبي رافع الذي كان على بيت علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه في شأن اعارته بنته عقداً عارية مضمونة مردودة بعد
ثلاثة أيام . فهذه موعظة للولادة والحكام . وفي الجزء نفسه موعظة للمتنفذين وهي
أنه « مرّ ديوجانس الحكيم بشرطي يضرب لصاً فقال : انظروا الى لص العلانية
يضرب لص السر » . وعندنا أن قصيدته في اللغة الفارسية التي يصف فيها شاباً
تقياً صالحاً قتل أمه الفاسدة لا تفهم الا على أنها رمز يهيب مؤلفها في أغلب الظن
اهابة خفية بالشعب للثورة على الحكم الفاسد والا فان قتل الأم لا يجيزه عقل
ولا شرع . انه في ذلك يجري على نسق الشعراء الايرانيين الذين تقدموه باعتماد
الرمز في أشعارهم لافادة مقاصدهم (منطق الطير مثلاً لفريد الدين العطار) .

من أجل دراسة أفكار العاملي وبيان علومه الواسعة لا بد من العمل قبل كل شيء على تجميع تراثه الفكري الواسع الذي يناهز تسعين مؤلفاً ورسالة وعلى طبعه وإشاعته. ونحن في موضوعنا «المتصل والمنفصل في فكر العاملي» اعتمدنا نبذاً قليلة منشورة في كتاب «الكشكول» وحده لأن «المخلاة» لا تشتمل على شيء من موضوعنا . ولم نستطع أن نطلع على رسالته الموسومة بالجوهر الفريد التي تهمننا في هذا الموضوع . وقد راجعنا إلى جانب ترجماته وما رواه المؤرخون عنه كتابه «خلاصة الحساب» الذي في المكتبة الظاهرية نسخة منه مطبوعة على الحجر، وكذلك عثرنا على شرح ممتاز ولكنه وجيز لكتاب العاملي «تشریح الأفلاك» ولم نعثر على الكتاب نفسه وعجبنا لهذه الأفكار الجيدة التي في الشرح حول سقوط الأجسام في الخلاء وسقوطها الحر في الهواء وعلى شؤون جاذبية الشمس والثوابت والسيارات والأقمار بحيث تسبق سبقاً لا مثيل له كلام نيوتن الذي ينسب إليه الكشف عن الجاذبية وقوانينها .

وكم يسعدنا حين نقرأ مسرحية لشكسبير أو لشاعر فرنسي مثل كورني وراسين وموليير أو مقالة لفيلسوف وعالم مثل ديكارت أن نجد الطباعات الكثيرة المحققة مع الشروح ومع الدراسات الكثيرة لكل منها . وكم يؤسفنا في المقابل حين نريد أن نفتش عن كتاب الجوهر الفريد للعاملي ولبعض رسائله العلمية ألا نجد لها أثراً أي أثر في مكتباتنا العامة أو الخاصة . أوّاه كم نشعر بالمرارة وكم يحزّ في النفس أن الأموال العربية والإسلامية الطائلة تذهب هدرًا في حروب مدمرة بين الأخوة والأشقاء ، وكان من الممكن أن يُصرف عشرُ معشارها في خدمة التراث العربي والإسلامي لتجلى صحائفه وتصل صفائحه ، هذا إلى جانب مئات الألوف من القتلى والمشوهين وهم في ريعان الشباب ومخايل القوة والعطاء .

أما موضوع المتصل والمنفصل فهو حديث فكري فلسفي علمي طويل ومتشعب نعرض خلاصته عرضاً واضحاً لنبرز أهمية الشيخ البهائي في إطار هذا الشأن . وكما أن العالم الفيزيائي يستطيع أن يحلل سناكوكب متوهج بمقياس الطيف ليعلم ما يشتمل عليه الكوكب من عناصر، كذلك نستطيع أن نتبين من وراء فكرة واحدة وهي فكرة المتصل والمنفصل مثلاً مدى تعمق البهائي في علم الحكمة . قضية

المتصل والمنفصل تبحث في الرياضيات وفي الفيزياء وفي الكيمياء • ومعنى المتصل أن الخط مثلاً قابل للانقسام غير المتناهي ، وكذلك السطح والمادة • ومعنى المنفصل أن الخط أو السطح والمادة يتألف كل منها من نقاط أو أجزاء دقيقة محدودة وأن الانقسام يقف عند هذه الأجزاء فهو متناه فالمتصل والمنفصل لفظان شاع استعمالهما في التراث العلمي العربي وانتقلا الى اللغات الأجنبية على طريق الترجمة فيقال في اللغة الانكليزية والفرنسية مثلاً للمتصل *continu, continuous* وللمنفصل *discretu, discontinuous* وثمة لفظ ثالث ألحقَ بهما وهو *discret* بمعنى المنفصل أي المتقطع يطلق على بعض الحوادث أو النقاط المفردة • اتصال الخطوط والسطوح والأجسام والطاقة والضوء أو انفصالها شغل المفكرين منذ قديم الزمان وقد عرضنا في أكثر من موضع من كتبنا ومقالاتنا هذه القضية فلا نفيض فيها بل نكتفي بعرض بعض المفارقات واللمع الفكرية في تاريخ الفلسفة والعلم لنصل الى موقف البهائي.

الانفصال في المادة عُرِفَ في كلا المذهبين نياياً وفايشنيكا عند براهمة الهند القدماء • ولقد نوه لوقيبوس وديمقريطس ثم أبيقورس عند اليونان بأن المادة تتألف في النهاية من أجزاء لا تتجزأ • ولكن المعلم الأول أرسطو اعتمد الاتصال والانقسام اللامتناهي • وقد ضحك زينون الايلي من فكرة الاتصال حين صورَ الخُلْفَ في فكرة الحركة المتصلة فمثلَ أخيلوس ذا القدمين الخفيفتين يلحق بسلحفاة • فلو كان الطريق متصلاً أي مؤلفاً مما لا نهاية له من الأجزاء لكان أخيلوس كلما قطع نصف المسافة بينه وبين السلحفاة مثلاً ووصل الى النقطة التي كانت بها السلحفاة لزم أن تكون السلحفاة قد قطعت مسافة ما • وهكذا لا يمكن له أن يلحق بها منطقياً مع أن الواقع بلوغه مكانها • ولما جاء المفكر الروماني القديم لوقريطس انضم الى أبيقورس في تنويهه بانفصال المادة •

وثارَت هذه القضية في التراث الاسلامي • فالاعتقاد بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مذهب فريق واسع من المسلمين وهم غالبية المعتزلة وجمهور المتكلمين • وربما كانت آراؤهم بادئ بدئ صادرة عن دوافع دينية • ذلك أن أبا الحسن الأشعري أخذ هذه النظرية عن سابقيه من المعتزلة واعتمدها في دعم اتجاهه الديني اذ حصر التناهي في المخلوقات والأشياء المحدثه وترك اللاتناهي لله • لقد

ورد في القرآن الكريم : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » وورد فيه أيضاً « وأحصى كل شيء عدداً » ولا يتم هذا الإحصاء إلا بما له نهاية . وعاود الفكرة تلميذه القاضي أبو بكر الباقلاني وأتباعهما من المتكلمين .

وكان العرب المسلمون يقولون للأجزاء التي لا تتجزأ الجواهر الفردة والذرات . وقد تسربت فلسفة أرسطو الطبيعية إلى التراث الإسلامي وهي قد أنكرت الذرات فلا غرو أن نجد بين المعتزلة من أنكر وجود الذرات أيضاً . وأبرز هؤلاء إبراهيم النظام . وردّ على النظام بمثل المفارقة التي نوّه بها زينون وذلك أن الماشي الذي يقطع مسافة متناهية يقطع ما لا نهاية له لأن هذه المسافة تقبل القسمة إلى غير نهاية . ولكن النظام تخلص من هذه الصعوبة بالطرفة ومعناها أن الجسم المتحرك لا يُماس أجزاء المسافة التي يقطعها بل يصير إلى مكان دون أن يمر بالذي قبله .

وفي تاريخ التراث العربي الإسلامي صور متعددة لهذه القضية التي كانت تلوح للمفكرين وتشغل عقولهم . فالشيخ الرئيس ابن سينا من أكبر ممثلي الفلسفة المشائية (فلسفة أرسطو وتلاميذه) . وقد قالوا إن الجسم كمّ متصل وفرقوا بين الانقسام بالفعل والانقسام بالقوة فأجازوا الثانية إلى ما لا نهاية وأنكروا الأولى .

ولما تحاور أبو الريحان البيروني وابن سينا جاء في السؤال الرابع الذي سأله البيروني ابن سينا في الرد على المعلم الأول : « لم استشنع أرسطوطاليس قول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ » وقد شعر البيروني بالصعوبة التي تكمن في القول بالجزء ولكنه وجد صعوبات أكثر في القول المقابل فأشار إلى أن « القول بأن الجسم يتجزأ إلى ما لا نهاية أشنع » ثم يسأل كيف التخلص من حرج كلا الموقفين . ويجيب ابن سينا أن أرسطو إنما أراد الانقسام بالقوة ولكن البيروني يلزمه إذ ذاك بمشكلة أن لو قسمت الأبعاد انقساماً غير متناهٍ لوجب أن يساوي قطر المربع أحد أضلاعه لأن كليهما ينقسم إلى ما لا نهاية . ويبدو من هذا أن النظرية تجاوزت الميدان الديني وغدت قضية مطروحة في الفلسفة الطبيعية عند مختلف المفكرين من ممثلي الفلسفة المشائية ومن المستقلين البارزين

أمثال البيروني وهبة الله أبي البركات البغدادي ومن علماء الدين أمثال
 فخر الدين الرازي . وقد عرض هذا المفكر العلامة فخر الدين في كتابه «المباحث
 المشرقية» مختلف المذاهب في هذا الشأن مع براهين كل فئة على مذهبها بحيث
 تتجلى صعوبة كلا الموقفين وحرصهما . وورث العلم والفلسفة هذه المشكلة في
 العصور الحديثة وتوزعها الباحثون على اختلاف مذاهبهم فلاسفةً وفيزيائيين
 وكيميائيين . ولا يمكن في هذا العرض السريع جلاء تلك المذاهب . ولكن لا بد
 من الالمام ببعضها ثم تحقيق ما أفضى إليه العلم في هذا الشأن . يذكر الفيلسوف
 الانكليزي برتراند رسل في كتابه portraits from memory and other essays
 الذي ترجمه أحمد ابراهيم الشريف بعنوان «العقل والمادة» وراجع الدكتور
 زكي نجيب محمود مثلاً عجيباً على الاستغراق في الفاسفة وهو لقاءه
 للفيلسوف اليوغسلافي برانسلاف بترونييفك سنة ١٩١٧ وانهماك هذا
 الفيلسوف في مشكلة الجزء والذرة منصرفاً عن الأحداث الخطيرة
 الجارية . يقول رسل : «وكان الصرب في ذلك الوقت قد نجحوا في الانسحاب الكلي
 الرائع أمام الغزاة الألمان وكنت متشوقاً لأن أعرف القصة منه لأنه شاهد عيان ،
 ولكنه لم يرد إلا أن يبسط رأيه في أن عدد النقاط في المكان محدود وأنه يمكن
 تقديره حسب اعتبارات مستمدة من نظريات العدد . فكان هذا
 الاختلاف في الاهتمام من جانب كل منا مدعاة لحديث على شيء من
 العجب والغرابة . قلت : «أكنت في الانسحاب العظيم ؟» فأجاب : نعم ! ولكن
 ألا ترى أن طريقة حساب عدد النقاط في المكان هي . . . » فأقول : «أكنت ماشياً
 على قدميك ؟» فيقول : «نعم ، ان عددها لا بد أن يكون أولياً» فأقول : «ألم تحاول
 أن تحصل على حضان ؟» فيقول : «بدأت على ظهر حضان ولكنني سقطت من على
 ظهره ، ولا يمكن أن يصعب علينا أن نعرف أي عدد أولي هو . » وعلى الرغم
 من كل محاولاتي لم أستطع أن أحصل منه على أكثر من هذا القدر عن موضوع تافه
 (!) كالحرب العالمية ، وأحسست بالاعجاب بقدرته على التناهي بعقله عن حوادث
 وجوده الجسمي » .

أما في العلم الحديث فقد كان الاتصال أول الأمر من صفات
 الفيزياء الاتباعية التي سادت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
 فالمكان متصل والزمان مستقل عنه وهو متصل أيضاً . ولكن العلماء بالتدريج

ولا سيما في الكيمياء اضطروا الى التخلي عن فكرة الاتصال في مجالات تجاربهم وتأملاتهم . غدوا يتصورون المادة تتألف من ذرات ولكن تصوّرهم كان مبهماً اضطروا اليه اضطراباً بسبب القوانين الكمية لاتحاد العناصر البسيطة بعضها ببعض كقانون النسب المحدودة لبروست وقانون النسب المضاعفة لدالتون وبسبب اعتبارات العالم الايطالي أفوغادرو لحجوم متساوية من الغازات تحتوي على عدد متساوٍ من الجزيئات وبالتالي من الذرات دون أن يستطيعوا بشكل من الأشكال أن يروا الذرة أو الجزيء ولو بأقوى المجاهر . حتى انهم حسبوا بطريق غير مباشرة عدد الجزيئات الحقيقية فيما دعوه بالجزيء الغرامي (سمي هذا العدد عدد أفوغادرو وهو يساوي $6,023 \times 10^{23}$) وحسبوا أن الذرة لا تنقسم ثم راعهم أن الذرة التي يدعونها في لغاتهم بالآتوم أي ما لا يتجزأ قد تجزأت ، وأن بناءها يشتمل على كهارب تدور حول نوى تتألف من أوّيلات وأوّيمات (بروتونات ونيوترونات) وكذلك على أجزاء أخرى دقيقة اعتبروها جميعاً نهاية المادة . وكذلك الأمر في الضوء فبعد اعتباره موجياً متصلاً نظر اليه على أنه يتألف من جسيمات دقيقة هي ما دعوه بالفوتون . ورأوا أيضاً أن الطاقة عند تبادل المادة والاشعاع لها انما يحصل التبادل بصورة منفصلة . ولكن العلماء أنفسهم في الوقت نفسه كانوا مضطرين الى الحفاظ على فكرة الاتصال لأنهم قرنوا بالأجزاء الدقيقة أمواجاً ذات مقادير رياضية والموج يفيد الاتصال . وكذلك رأوا أن تلك الأجزاء الدقيقة يؤثر بعضها في بعض تأثيراً متصلاً ضمن مساحات في المكان تجاذبية وكهرطيسية وما الى ذلك . فالاتصال والانفصال بدّوا جانبيين متقابلين لحقيقة واحدة . فدعا العلماء هذا الاقتران المتقابل بالتنامية . وليست هذه التنامية الا شكلاً نظرياً للحيرة التي يحيط العالم بها بدلاً من أن تحيط به .

مثل هذه الحيرة أو التنامية . نجد ها عند بهاء الدين العاملي . لقد كانت فكرة المتصل والمنفصل تشغل تفكيره اذ يتبدّى أحد الجانبين فيها تلو الآخر . فهو يعقد فقرة في كتاب « الكشكول » يبرهن فيها على ابطال الجزء فيقول : « مما سنح بخاطر جامع الكتاب تفرض دائرة مركبة من الأجزاء وتخرج فيها خطين مارين من المركز بين طرفيهما جزء واحد من محيط الدائرة فهما متقاطعان على

المركز فالانفراج الذي بينهما قبل التقاطع اما أن يكون بقدر الجزء أو أكثر أو أقل والكل باطل لاستلزام الأول كون المتقاطعين متوازيين والثاني كون المتقاربين في جهة متباعدتين فيها والثالث الانقسام» . (طبعة ١٩٦١ ج ٢ ص ٦٠) . ولكنه في الكتاب نفسه يذكر لنفسه برهاناً على امتناع اللاتناهي فقد ورد في اثبات الجزء قوله : « ليس لمثبتي الجزء حجة أقوى من حكاية وضع الكرة على السطح المستوي اذ لو انقسم موضع الملاقاة لوصل من طرفيه الى مركزها ليحدث مثلث متساوي الساقين ويخرج من ملاقة القاعدة عمود الى المركز . فالخطوط الثلاثة الخارجة من المركز الى المحيط متساوية لأنها كذلك ويلزم أن يكون أطوال الساقين أكبر من العمود لأنهما وترا القائمتين وهو وتر الحادثين » (ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦) .

وفي الكتاب نفسه أيضاً برهان آخر على امتناع اللاتناهي يسهل الرجوع اليه (ج ٢ ص ٥١) ويذكر المؤلف برهاناً ينسبه الى السيد السمرقندي على امتناعه (ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨) ويناقشه . وهذا يدل فيما يدل على أن العاملي كان مُدمن الفكر في قضية اثبات الجزء أو نفيه . تارة يثبتته وتارة ينفيه . فهو في هذه الحيرة العلمية يبدو في صف العلماء الحديثين اذ كان هؤلاء العلماء يلحون على التنافر بين هذين الوصفين المقترنين عند دراستهم للظواهر الميكروفيزيائية : يلوح فيهما الاتصال فيخفى الانفصال أو يلوح الانفصال فيخفى الاتصال ، فكأنهما وجهان لعملة واحدة لا نراها معاً . وان قصارانا أن نرى الوجه الواحد تلو الآخر .

وليس معنى كلامنا أننا نقبل براهين بهاء الدين العاملي في هذا الشأن ، هيهات ! ذلك أن أساليب البحث والبرهان العلميين قد تبدلت تماماً حين تجاوز العلماء مقاييس الظواهر الفيزيائية في السلم الانساني وبلغوا فيما دعوه بالميكروفيزياء شفا المادة والطاقة أي نهاية أطرافهما . ومع ذلك فهم يتساءلون هل الكهرباء أي الالكترون وحبة النور أي الفوتون قابلتان للانقسام أولاً ؟ وهم يستشفون الجواب من أشكال المعادلات الرياضية التي تفيد صيغها كلاً منهما .

المهم هو أن نسجل قلق عالم كبير مثل بهاء الدين العاملي تجاه هذه القضية . وهو يشبه قلق العلماء المعاصرين وان كنا نرى أدلته وأدلة أمثاله قديماً من

العلماء في غاية السذاجة • ولكنه يبدو أحصاف موقفاً وأعمق فكراً وأنفذ ذكاءً حين يتردد بين الجانبين كأن كلاً من الجانبين يتم الجانب الآخر على حد اصطلاح فلاسفة العلوم المعاصرين • بل ان هذا القلق الفلسفي حول الاتصال والانفصال، حول الانقسام اللامتناهي أو الانقسام المتناهي جعل العاملي يدخل هذه المشكلة في بعض ألغازه التي كتبها تنشيطاً للتفكير •

وصفوة القول أن بهاء الدين العاملي فقيه صوفي نحوي لغوي أديب راوية شاعر مهندس رياضي فلكي • وكأنما عناه القائل :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

نعم لقد قل أن تجتمع هذه الصفات العلمية والأدبية عند الغربيين ، وان كنا نجدها أحياناً مجتمعةً ومؤلفةً عند أعلام بارزين في الحضارة العربية الاسلامية بفضل الاسلام وحثه على طلب العلم والمعرفة والحكمة • من هؤلاء الأعلام من نحن في صدد تكريم ذكره • بل فوق ذلك كله نجده يمثل في شخصه التعاون العميق بين العرب والایرانیين في تجسيد القيم الرفيعة وفي ظل سلام العلم والمحبة • ان التأمل في مزايا هذا العلم الحميدة وخصاله الفريدة يجعلها تسري في خفاءٍ وبتعاطف عميق الى التأمل • ولما كان شاعراً جعلني أغنى بهذه الأبيات التي تلخص حياته وتعيي ذكره :

شدا كل العلوم وفاق فيها	فيا لفتى العلوم العبقري
وبالعربي "نمق كل" نثر	وشعر رائق والفارسي
لسانه تعانقتا اتلافاً	تقول عناق أم للصبي
له الكشكول والمخلاة سارا	مسير النور في الأفق القصي
هما كنزان من علم ووعظ	وهندسة ومن أدب وضي
يزينان التراث على غناه	كما ازدان الغواني بالحلي
وما الأسماء ان حقت الا	ثمار تواضع القلب التقى
فيا لك عالماً وأديب عصر	وصوفياً وذا خلق رضي
تناهى الفضل والعرفان فيه	وحب الآل مع حب النبي
وتلك حضارة فاقت سمواً	حضارة عالم باغ غوي

حضارة عالم لا خلق فيها
ليسترقا منازلنا ونقصي
إذا صار الشقيّ رئيس قوم
قوى قد غطرت وطغّت عتوّاً
كان الدهر بعد هداه أمسى
لحاهها الله من دنيا تَمَادَت

سعى فيها الشقيّ مع الشقيّ
عن الأقصى وعن حقّ جليّ
تَنَمَّرَ مُمَعِناً في كل غيّ
وتاهت في الضلال العُنْجَهيّ
هواه مع الأخسّ مع الدنيّ
على ساح الوجودِ اليعربيّ

★ ★ ★

سنمشي للعلا قدماً ونبني
وما أحلى التعاون في شعوب
وليس يتمّ إلا بالتصافي
أخاك أخاك ان أخاك حقّاً
إذا أوطاننا ضُمَّتْ عُراها
تري الرايات تخفق في رباها
يُشعُّ النورُ حلواً من حماها
وتُزكي كل مكرمة ثراها
أمانٍ للقلوب تَرفٌ فيها
لعمري أفضل الأعمال علمٌ
وما شخص الفتى إلا خيالٌ

صروح المجد والعيش الهنيّ
أواصرها من الدين السنّيّ
وضمّ الصفّ والشّمم الأبّيّ
لدى البأساء كالركن القويّ
زهت بالفار والزهر الجنيّ
وتعلو في الغدو وفي العشيّ
أليس النور غاية كل حيّ
فأكرم بالثرى العطر الزكيّ
رفيف النجم في الليل العتيّ
يقرّبنا من المولى العليّ
ويبقى نور قلبٍ لودعيّ

★ ★ ★

أتيتُ منوّهاً بسنا بهائي
ولا يستطيع أن يُوفي سناه
لعلّ الله يكلّونا ويضفي
سلام الله والآيات تُهدّي
الهي أنت تعلم ضعف حالي
وما عبد الكريم سوى فقيرٍ
حبيبي كلُّ محبوبٍ لديه

نظّرتُ إليه من طرفٍ خفيّ
سوى من كان مثل العامليّ
سلاماً عادلاً في كلّ حيّ
إلى مجد النبوة والوليّ
فكن لي مسعداً في كل شيّ
زكا برعاية الله الغنيّ
وعزّي بانتسابي للوصي
عبدالكريم اليافي